التّعذيب في رواية "المسكوبيّة: فصول من سيرة العذاب" لأسامة العيسة، دراسة تحليليّة

مشهور عبد الرحمن الحبّازي[1]

وبنان صلاح الدين[2]

Torture in Osama Al-Eissa's Novel *Al-Maskoubiya: Chapters from the Biography of Torment*, An Analytical Study

Mashhour el-Habazi and Banan Salah Eddin

Abstract

Many Palestinian detainees wrote about the torture they experienced in Israeli occupation prisons, and their torture was documented in poetry and prose. One of the most remarkable written records in this domain is Osama Al-Eissa's novel *Al-Maskoubiya: Chapters from the Biography of Torment.* The novel's main title, "Al-Maskoubiya", and its sub-title, "Chapters from the Biography of Torment" have informed this study. For the vast majority of the Palestinian people, the main title insinuates various semantic connotations, and as soon as the name "Al-Maskubiyya" is mentioned, it is immediately connected with a 'slaughterhouse.' Such unconscious semantic reference triggers a simulation of painful torture, where symbolic death ensues through exsanguination. In the past, skin flaying was one of the most severe types of torture, inflicted by the most tyrannical' rulers, amongst which Ma'ad bin Mansour, nicknamed Al-Mu'izz Li Din Allah Al-Obaidi[3], was the most vicious, arresting the Muslim scholar Muhammad bin Ahmed Al-Ramli, known as Ibn Al-Nablusi (363 AH. 973 AD). He defamed Ibn Al-Nabulsi on the first day, tortured him on the second, and ordered a Jewish

[1] كلية الآداب-جامعة القدس.

[2] كلية الآداب-جامعة القدس.

[3] His leader was Jawhar Al-Siqili.

butcher to flay his skin while alive, then stuff his body with straw. Along with addressing the psychological effects torture inflicts on detainees, this paper will present a detailed account of the most important main methods and sub-methods of torture mentioned in the novel and recognized by many Palestinian prisoners of Al-Maskubiya or other occupation prisons including physical torture, psychological torture, shabeh torture, and waterboarding torture. As such, the most significant conclusion of this paper is that overcoming the different methods of torture lies in standing up against the interrogator, who should be seen by the detained Palestinian fighter as an employee defending a lost cause.

الملخّص:

كثير من المعتقلين الفلسطينيّين كتبوا عن التّعذيب الذي ذاقوه ألوانًا في سجون الاحتلال الإسرائيليّ؛ وقد سجّلوا ذلك شعرًا ونثرًا، ومن أهمّ ما كتب في ذلك، ما كتبه الكاتب أسامة العيسة في روايته "المسكوبيّة: فصول من سيرة العذاب".

ما دفعنا لاختيار هذه الرّواية هو عنوانها الرئيس "المسكوبيّة"، ثمّ عنوانها الفرعيّ، وهو: "فصول من سيرة العذاب"؛ فالعنوان الأوّل ذو إيحاءات دلاليّة كثيرة لدى الغالبيّة العظمى من أبناء الشّعب الفلسطينيّ؛ إذ ما أن يسمع المواطن باسم "المسكوبيّة" حتّى يتبادر إلى ذهنه الصّفة المرافقة وهي "المسلخ"، فالمسكوبيّة لها معنى رديف في العقل الباطنيّ للفلسطينيين وهو المسلخ، أي مَنْ يدخلها، يتعرّض لعمليّة سلخ جلده عن عظمه، مع ما يُصاحب عملية السّلخ من ألم لا يُماثله ألم؛ فقديمًا، كان سلخ الجلد من أشدّ أنواع التّعذيب، ولا يُمارسه إلّا أكثر الحكّام ظُلمًا، ومنهم المدعو معدّ بن منصور، المُلقب بالمعزّ لدين الله العبيديّ، وقائده جوهر الصقليّ، الذي اعتقل العالم المسلم محمد بن أحمد الرّمليّ، المعروف بابن النّابلسيّ سنة (363 هـ/973م)، وشهّره في اليوم الأوّل، ثمّ عذّبه في الثاني، ثمّ في اليوم الثالث أمر جزّارًا يهوديًّا بسلخ جلده وهو حيّ، ثمّ حشاه تبنًا.

في هذا البحث سنُعرّف بالكاتب، وروايته، ثمّ نتناول أهم أنواع التّعذيب الرئيسة، والفرعيّة التي سردها أسامة العيسة في روايته، وبالتفصيل الذي يعرفه كثير من الفلسطينيّين الّذين اعتقلوا في المسكوبيّة أو غيرها من سجون الاحتلال، وأهمها: التّعذيب الجسديّ، والتّعذيب النّفسيّ، والتّعذيب بالشّبح، والتّعذيب بالماء، كما سنتناول بعض الآثار النّفسيّة الّتي تتركها وسائل التّعذيب على المعتقلين.

وقد خلصنا إلى نتيجة مهمّة هي: أنّ الوسيلة الأهم في التغلب على أنواع التّعذيب المختلفة تكمن في الصّمود أمام المحقّق، الذي يجب أن ينظر إليه المناضل الفلسطينيّ المعتقل على أنّه موظّف يُدافع عن قضية خاسرة.

تمهيد

قبل البدء بموضوع البحث الرئيس، لا بدّ من التمهيد للقارئ بمدخل يُساعده في التعرّف إلى الكاتب، والإحاطة بالأجواء التي أوحت له بكتابة موضوعه، ثم تعريف القارئ بهيكل الرّواية، وموضوعاتها، وموقع موضوع العذاب فيها. وقد رأينا أن يأتي هذا التمهيد في أربعة محاور، وهي:

المحور الأوّل- تعريف بالكاتب[1]

أسامة محيسن العيسة، مواطن فلسطينيّ من مواليد سنة (1383هـ/1963م) ولد ونشأ في مخيم الدهيشة جنوب غرب مدينة بيت لحم، واعتقل وهو في نهاية المرحلة الثانوية عندما كان يعدّ العدّة مع عدد من أترابه وزملائه في المدرسة لإحياء الذكرى السّادسة ليوم الأرض، (يوم الإثنين 2 جمادى الآخرة 1402هـ الموافق 29 آذار 1982م)، فكان هذا الاعتقال وما عاناه فيه من صنوف التّعذيب والقهر الوحشية السبب المباشر في كتابة هذه الرّواية.

عمل أسامة العيسة في مجال الصحافة، وقد تنقّل في صحف عديدة، ومنها: صحيفة الشرق الأوسط، والأخبار، وكل العرب، وراية لناظم بدر، والمهماز التي أنشأها إميل حبيبي، ثم عمل مديرًا لتحرير صحيفة الصدى الأسبوعية. وعمل بنظام القطعة في عدد من الصحف والمجلّات العربية خارج فلسطين، ومنها: القدس العربيّ، وصحيفة العرب في لندن، وبعض الصحف العربيّة الصادرة في دول الخليج العربيّ، وأخيرًا استقرّ به الأمر في صحيفة "الحياة الجديدة" الفلسطينيّة الرسميّة الّتي تصدر في مدينة البيرة.

[1] انظر: جميل السّلحوت، أدب السّجون، 172؛ وحيد تاجا، حوار مع الأديب أسامة العيسة، رؤى ومتابعات: مؤسسة فلسطين للثقافة؛ يامن نوباني، أسامة العيسة: الأدب صناعة ثقيلة: ضيف وفا (14)، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينيّة (وفا بيت لحم، 2017/2/19

وقد أصدر أسامة العيسة أكثر من عشرين عنوانًا في الأدب، والتاريخ والآثار، ومنها:

في القصة، أصدر عددًا من القصص، والمجموعات القصصيّة، ومنها: مجموعة قصصية بعنوان "ما زلنا نحن الفقراء أقدر النّاس على العشق"، سنة (1404 هـ/1984م)، ومجموعة بعنوان "انثيالات الحنين والأسى" سنة (1425هـ/2004م)، ومجموعة بعنوان "رسول الإله إلى الحبيبة" سنة (1438هـ/2017م)، وقصّة طويلة بعنوان "الحنّون الجبليّ" سنة (1405هـ/ 1985م)، وغيرها.

1- في الرّواية، أصدر عددًا من الروايات نال على بعضها جوائز قيّمة، ومنها: "المسكوبيّة: فصول من سيرة العذاب" سنة (1431هـ/2010م)، ونال عليها الجائزة العربيّة للإبداع الثقافيّ في العاصمة العراقيّة بغداد، سنة (1434هـ/2013م). و"مجانين بيت لحم"، سنة (1434هـ/2013م)، ونال عليها جائزة الشيخ زايد للكتّاب في الإمارات العربيّة المتّحدة سنة (1436هـ/2015م). و"قُبلة بيت لحم الأخيرة"، سنة (1437هـ/2016م)، و"وردة أريحا"، سنة (1438هـ/2017م)، وغيرها.

2- في التّأليف، أصدر عددًا من الكتب في موضوعات مختلفة، ومنها: "تل أبيب لا تعرف النّسيان: قصّة اغتيالات قادة انتفاضة الأقصى"، سنة (1422هـ/2001م). و"مخطوطات البحر الميت: قصّة الاكتشاف" سنة (1424هـ/2003م). و"ظلّهُ على الأرض: ألقاب حُكام مسلمين في رقوم مقدسيّة"، سنة (1425هـ/2005م). وغيرها.

المحور الثّاني- تعريف بالرّواية[1]

المسكوبيّة، رواية تنتمي إلى موضوع مهم من موضوعات الأدب الفلسطينيّ الحديث، وهو أدب السّجون. وقد صدرت طبعتها الأولى عن مركز أوغاريت الثّقافيّ في مدينة رام الله بفلسطين

[1] انظر: جميل السّلحوت، مرجع سابق، 172؛ وحيد تاجا، مرجع سابق؛ خالد البيوميّ، أسامة العيسة: أكتب عن النّاس المهمّشين؛ جريدة الحياة؛ عزيز العصا، أسامة العيسة في روايته "المسكوبيّة": جريدة القدس؛ سميح محسن، المسكوبيّة: يوميّات كاتب فلسطينيّ؛ سامي مسلم، الدكتور مسلم يكتب عن المسكوبيّة، الرّاوية: مدونتي الأدبيّة.

عام (1431هـ/2010م). وهي تتألّف من: إهداء، وخطبة، وستة فصول توزّعت على تسع وثلاثين محطة أعطى كلّ محطة رقمًا متسلسلًا، وختمها بقائمة مصادر ومراجع بعنوان "استهداءات"، وقد جاءت الرّواية في مائة وتسع وخمسين صفحة من القطع المتوسط.

وقد جاء الإهداء في سطر واحد، حيث أهدى الرّواية إلى ابنه البكر باسل، الّذي كان يشرب من الكأس الّتي شرب منها هو، حيث كان معتقلًا في المسكوبيّة، وعمره خمسة عشر عامًا، أي يُقارب عمر أبيه عندما شرب عذاب المسكوبيّة حتّى أصبح قادرًا على كتابة رواية عن ذلك العذاب الوحشيّ.

وجاءت خطبة الرّواية بعنوان "لو تتكلّم الجدران"، وجعلها درسًا في تاريخ السّجون التي أسّسها الاستعمار البريطانيّ، بأموال الضّرائب الّتي جمعها ظلمًا من الشّعب الفلسطينيّ، وما مارسه الصّهاينة في تلك السّجون ضد أبناء الشّعب الفلسطينيّ من تعذيب وحشيّ، انتهاء بسجن أريحا الّذي كان السّجّانون فيه من البريطانيّين، والأمريكيّين، وعلى الرّغم من ذلك قام الصّهاينة بهدمه كآخر حصن من حصون "تاغرت"[1]، الّتي شيّدها الاستعمار البريطانيّ، وذلك (يوم الثلاثاء 12 صفر 1427هـ الموافق 14 آذار 2006م). وقد سرد الرّاويّ في هذه الخطبة شيئًا من تاريخ الحركة الأسيرة الفلسطينيّة منذ بداية الاحتلال البريطانيّ.

أمّا فصول الرّواية السّتّة؛ فهي: غرفة رقم (12)، ودويلة المسكوب في القدس، وثلوج آذار، وأبو العلم وآخرون، وزميلي الإرهابيّ، ومطر القدس. وقد دارت فيها أحداث الرّواية المهمّة من أوّلها إلى آخرها، فيما جاءت الاستهداءات في صفحتين فقط، وأورد فيها سبعة عشر مصدرًا ومرجعًا. وقد حرص الرّاوي من البداية على إظهار لونه السياسيّ، وبدا مُنظّرًا لهذا اللّون في كلّ فرصة سنحت له مهما كانت صغيرة.

[1] تاغرت هو: تشارلز تاغرت، ضابط في المخابرات البريطانيّة، ومسؤول الأمن في حكومة الاحتلال البريطانيّ في فلسطين، بدأ بناء مقرّات للحاكم العسكريّ البريطانيّ في المدن الفلسطينيّة المحتلة في ثلاثينيات القرن الماضي، واشتهر بقمع الثورات الفلسطينية بوحشية، وقد سُمّيت السّجون الّتي بناها في مقرّات الحكام العسكريّين البريطانيّين باسمه؛ حيث أطلق عليها اسم "حصون تاغرت". انظر: سامي مسلم، الدكتور مسلم يكتب عن المسكوبيّة؛ المرفق رقم 1391: معتقل سرّي إسرائيليّ: جريدة الأيام.

1- أسلوب الرّواية[1]

أقام الرّوائيّ أسامة العيسة روايته على أسلوب السّرد المباشر، وغير المباشر في كلّ ما تحدّث عنه من: قصص وحكايات وأحداث شكّلت فصول الرّواية جميعها. وقد جاء السّرد في أحيان كثيرة على شكل أخبار، أو تحقيقات صحفيّة؛ واستخدم آليات عديدة في هذا الأسلوب، ومنها: استرجاع الأحداث في رصد الملامح النّفسيّة للمعتقل، وذكر صراعاته الدّاخليّة في التّجارب الّتي كان مرّ بها، وهو في المعتقل "المسكوبيّة"، أو في معتقل "الفارعة". كما استخدم آلية سرد الأخبار، والشّهادات الحيّة في ذكر التّجارب الاعتقاليّة له، أو لغيره من المعتقلين. قال: "وأعتقد بأنّني في "المسكوبيّة" ذهبت بعيدًا في التّجريب الرّوائيّ، مُستفيدًا من الأساليب البحثيّة والصّحافيّة مثلًا، وليس فقط الفلاش باك".[2] وهذا ما جعل أسلوبه أسلوبًا يقوم على تسجيل الأحداث وتأريخها.

وقد استخدم الكاتب لغة بسيطة وسهلة، فجاء أسلوبه سلسًا وواضحًا، حيث انتقل من حدث إلى آخر من دون مقدّمات، ما جعله أكثر تشويقًا.

2- موضوع الرّواية[3]

تناولت الرّواية موضوعين رئيسين هما: الحياة الّتي يعيشها المعتقل الفلسطينيّ داخل السّجون والمعتقلات العسكريّة الصّهيونيّة، وقضايا تاريخيّة، وجغرافيّة فلسطينيّة. ولمّا كان

[1] انظر: جميل السّلحوت، مرجع سابق، 174، 179-181؛ رائد الحواري، التّعذيب في رواية المسكوبيّة، مجلّة الحوار المتمدّن، العدد (5376)؛ يامن نوباني، في مكتبة أسامة العيسة: وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينيّة (وفا)، بيت لحم، 2016/11/27؛ محسن، سميح، المكسوبيّة: يوميات كاتب فلسطينيّ تضيف إلى أدب السّجن.

[2] وحيد تاجا، مرجع سابق؛ يامن نوباني، أسامة العيسة: الأدب صناعة ثقيلة: ضيف وفا (14)، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينيّة (وفا)، بيت لحم، 2017/2/19.

[3] انظر: جميل السّلحوت، مرجع سابق، 181-175؛ رائد الحواري، مرجع سابق، مجلّة الحوار المتمدّن، العدد (5376).

موضوع هذا البحث هو أنواع التّعذيب، فمن المهم القول: إنّ الكاتب أسامة العيسة في هذه الرّواية "المسكوبيّة: فصول من سيرة العذاب" سجّل في روايته معاناة المعتقلين الفلسطينيّين في سجون الاحتلال ومعتقلاته بعامّة، وفي المسكوبيّة بخاصّة، من لحظة مداهمة قوات الاحتلال الوحشيّة لبيت المعتقل، ونقله في سيارة عسكريّة حيث يُطعمه جنود الاحتلال الوجبة الأولى من العذاب، وحتّى لحظة خروجه من المعتقل، وقد سجّل هذه المعاناة اعتمادًا على تجربته الشّخصيّة الأولى في سجن المسكوبيّة في شهريّ (جمادى الآخرة ورجب 1402هـ الموافق لآذار ونيسان 1982م). وكان واضحًا أنّ الكاتب منحاز بشكل كامل للمعتقلين، والتّعريف بمعاناتهم، والحثِّ على مناصرتهم، ونُصرتهم، وتوفير الحماية لهم من الوحوش الكاسرة الّتي تتلذّذ بتعذيبهم على مدار السّاعة؛ ولذلك أهدى الرّواية لابنه باسل، الّذي لم يستطع حمايته كما لم يستطع أحد حماية المعتقلين الفلسطينيّين جميعهم، وقد عبّر عن عجزه، فقال في جوابه عن سؤال وجهه إليه الصّحفيّ وحيد تاجا حول إهدائه الرّواية لابنه باسل المعتقل في المسكوبيّة: "ولم أتوقع، يومًا، أن أعيش عمري كلّه في ظلّ الاحتلال، وأتزوج في ظلّ الاحتلال، وأنجب أبناء يُعتقلون في سجون هذا الاحتلال.. يبدو لي أحيانًا أنّه احتلال لا ينتهي. وأن يعيش المرء - أيّ امرئ - عمرًا في ظلّ احتلال، لهو تجسيد لأكثر المآسي الإنسانيّة تراجيديّة وتأثيرًا. ربّما أهديتُ روايتي لباسل كنوع من الاعتذار، عن الفشل، وعن الانقسام، والاحتراب. وعجزي عن حماية الطّفل الّذي كانه -لعلّ الكاتب يريد هنا عندما كان ابنه باسل طفلًا- من البطش الاحتلاليّ.

صدقني: عندما أنظر - الآن - من نافذتي وأرى الأنوار الخافتة في منازل ناسنا، أشعر بفداحة قضاء ليلة أُخرى في ظلّ احتلال. والصّحو مبكرًا ليستقبلوا يومًا جديدًا، من مكابدات احتلال قاسٍ ... آه ما أقسى الاحتلال".[1]

[1] وحيد تاجا، مرجع سابق.

3. شخوص الرّواية، وبطلها[1]

قام بأحداث الرّواية شخصيات كثيرة، سواء أكان ذلك من جانب المعتقلين الفلسطينيّين، أم من جانب السّجّانين الصّهاينة، وجنود الاحتلال، وضبّاط المخابرات، والمحقّقين، وغيرهم؛ ولكثرتهم ولكون موضوع البحث لا يمسّهم بشكل مباشر؛ فإنّني لم أتحدث عنهم.

أمّا بطل الرّواية؛ فهو الرّاوي (الكاتب، وهو أسامة العيسة)، ويظهر ذلك جليًّا للقارئ من بداية الرّواية، حيث يسرد الرّاوي الأحداث بصيغة المتكلّم، الذي هو أسامة العيسة، الذي يلتقي الشّخصيات الّتي دخلت السّجن، أو خرجت منه، فيحدّثهم، ويسألهم، ويُحاورهم، ويُناقشهم، ويستمع إليهم، ويُفسّر سلوكهم، كما أنّه يسرد للقارئ معلومات تاريخيّة وجغرافيّة، وسياسيّة، وثقافيّة، وأمنيّة، وأيديولوجيّة، ويقف منه موقف المرشد والواعظ إلى الفكر الّذي يحمله الرّاوي مُباشرة، وهو الفكر اليساريّ بعامّة، وفكر الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين بخاصة، أو غير مباشرة من خلال نقد فكر فصائل وأحزاب فلسطينيّة أُخرى، وبخاصة فكر حركة فتح والفكر الإسلاميّ.

4. فكرة الرّواية

يمكن القول إنّ الكاتب خلص بوضوح إلى النتيجة الّتي أراد أن يعيها ويحفظها كلّ مَنْ يقرأ روايته، وهي قوله: "لا يوجد خلاص من زنزانتك إلّا أن تكون نفسك، صاحب قضية، تريد أن تنتصر على محقّق يجب أن تراه مجرّد خادم، يدافع عن قضية خاسرة".

أين هو منك؟ نذرت نفسك لقضية عادلة. حتّى لو لم تكن فلسطينيًّا، فإنّ خيارك سيدفعك إلى هذا الموقع. أنت تمثل الإنسان الحرّ في كلّ مكان، بغضّ النّظر عن جنسه أو لونه أو موطنه. حفرت على زنزانتك ما حفظته من الكتيّبات المتداولة في الخلايا السرية "الإنسان أخو الإنسان"، أنت جزء من منظومة حالمة بجنّة الإنسان على الأرض، من أفريقيا

[1] انظر: وحيد تاجا، مرجع سابق؛ سامي مسلم، مرجع سابق.

وآسيا وأميركا اللّاتينيّة إلى موسكو وبرلين. وهو برغي في عجلة. مسمار في آلة تدوس مَنْ أمامها. مجرّد رقم في سلطة الرّأسمال الّذي يريد أن يبتلع الدنيا. هو ضحيّة له. جميعهم هنا ضحيّة، مجرّد أرقام في معادلة، لهم دورهم الوظيفيّ في تلك المنظومة البالعة، يهاجرون إلينا من كلّ أنحاء العالم، هم المتحرّكون، ونحن الثابتون، هم البراغي، ونحن ملح الأرض، هم وظيفيًا في منظومة، ونحن في نسيج منظومة مضادة".[1] وهذا ما يؤكّد أسلوبه الوعظيّ المباشر.

5- لماذا التّعذيب؟!!

الأسر والاعتقال قديم قِدم وجود الإنسان على هذه الأرض، واختلافه حول قضايا كثيرة، وقد ترافق معه التّعذيب؛ فمارسه المُعْتقِل ضدّ المُعْتَقَل لأهداف عديدة، أهمّها الحصول على المعلومات، والمحتل الصهيونيّ لم يترك وسيلة تؤدّي إلى الحصول على المعلومة إلّا واستخدمها أبشع استخدام. وقد استخدم جهاز المخابرات الصّهيونيّ المسمّى "الشّاباك"، المسكوبيّة حقل تعذيب تجريبيّ للحصول على الاعترافات، قال: "بينما تبقى المسكوبيّة مشرعة لاستقبال أجيال وأفواج جديدة يجري الشّاباك عليهم تجاربه التّعذيبيّة، لانتزاع الاعترافات"[2].

في هذه الرّواية "المسكوبيّة: فصول من سيرة العذاب"، استقصى الرّاوي (الكاتب) كل ما "أكله" من صنوف التّعذيب، وما رواه له المعتقلون الّذين قابلهم، أو سمع منهم قصص تعذيب زملاء لهم.

وقد جاء عنوان الرّواية موحيًا بشكل مباشر لِما تحويه الرّواية من صنوف التّعذيب الّتي لا تخطر إلّا على بال مَنْ عاش الاعتقال في سجون الاحتلال بعامّة، ومُعتقل المسكوبيّة بخاصة؛ وذلك للسّمعة السيئة الّتي اكتسبها في أوساط الشّعب الفلسطينيّ، حيث حاز لقب "المسلخ" من دون منازع بين سجون الاحتلال ومعتقلاته المنتشرة على طول خريطة الوطن الفلسطينيّ المحتل، والّتي يعود كثير منها إلى عهد الاحتلال البريطانيّ، الأب الشرعيّ للكيان

[1] أسامة العيسة، المسكوبيّة، 39.

[2] ن.م.، 73.

الصّهيونيّ. ويمكن الحديث عن صنوف التّعذيب الّتي سردها الكاتب في روايته على النّحو الآتي:

أوّلًا- أنواع التّعذيب الرئيسة

في المسكوبيّة وصف دقيق لعمليات التّعذيب المتنوعة؛ الجسديّة، والنّفسيّة، الّتي يتعرّض لها المعتقلون الفلسطيّنيون في سجون الاحتلال الصّهيونيّ ومعتقلاته. وقد رأيت أن أتحدث عن أهمّ أربعة أنواع من أنواع التّعذيب الّتي ذكرها الكاتب، وهي:

1- التّعذيب بالضّرب

الضّرب هو أحد أهمّ أدوات التّعذيب الّتي يستخدمها الإنسان في تعذيب الإنسان من أجل الحصول على المعلومات منه في مرحلة الاعتقال، وقد تفنّن ضباط المخابرات، وأفراد الشّرطة، وجنود الاحتلال الصّهيونيّ الّذين يُشاركون في عملية الاعتقال، والتّحقيق، والسّجن، في إيجاد الوسائل الشّيطانيّة للضّرب على كلّ أعضاء جسم الإنسان، من دون مراعاة لآدمية هذا الإنسان، وأهمية العضو في جسم الإنسان؛ لأنّ الهدف هو الأهم من الإنسان كلّه، وقد سرد الكاتب جميع صنوف الضّرب الّتي تعرّض لها هو أو غيره من المعتقلين الفلسطينيّين، وكان بعض تلك الصّنوف مُمنهجًا من قبل ضبّاط المخابرات، وشرطة الاحتلال، وجنوده، وبعضها يُمارس بشكل عنصريّ وساديّ من قبل كلّ مَنْ يرى الفلسطينيّ مُعتقلًا، وأهم صنوف الضّرب هي:

1. وجبة الضّرب الأولى، وهي الّتي "يأكلها" المعتقل من جنود الاحتلال الموجودين في مقرّ الحكم العسكريّ الصّهيونيّ في المدينة الّتي يتبعها، أو في المدينة الّتي ينقل إليها للتّحقيق معه، وهي في بيت لحم تسمّى "البصّة" وغالبًا ما "يأكلونها" ووجوههم إلى الحائط، وأحيانًا وهم معصوبو الأعين، وأيديهم مرفوعة إلى الأعلى، أو مربوطة إلى الخلف برباط البلاستيك الّذي وضع في أيديهم من لحظة الاعتقال الأولى. وهذه الوجبة الأولى تتكوّن من: الضّرب والشّتم المتنوّع من الجنود الموجودين في سيارة الجيب، وتتراوح ما بين: اللّكم، والصّفع، والضّرب بأعقاب البنادق، والضّرب بالبسطار أو بأي شيء موجود في سيارة الجيب، وعلى

أيّ عضو من أعضاء الجسم بدءًا من الرّأس ومرورًا بالأعضاء التناسليّة، وانتهاءً بالضّرب على أصابع القدم، فيما يتراوح الشّتم بين شتم الأم والأخت، والزّوجة، والخطيبة، وبين شتم الوالد والجدّ والشّعب، والأمّة، والدّين، وكلّ شتيمة تخطر على بال ذلك الجنديّ. وغالبًا ما يتبع الضّرب والشّتم أو يرافقه البصق على كلّ أنحاء الجسم، قال: "تمّ إنزالنا من السّيارات في جوّ من الإرهاب، كما هو حال مراكز التّوقيف الّتي يسيطر عليها الجيش، ولا تحكمها أيّة قوانين. وتلقّينا أوّل وجبة من الضّرب من قبل الجنود الّذين أوقفونا، ووجوهنا إلى جدار طويل.

لم يطل وجودي مع الشّباب، الّذين أخذ بعضهم، وسط الضّرب والإرهاب الّذي يشيعه وجود الجنود، يطلقون النّكات والضّحكات همسًا، وهي تتولّد بشكل غريب في ظروف مأساويّة.

نقلت إلى مكان آخر، بينما بقي الشّباب، كما علمت، بضعة أيام في مركز التّوقيف العسكريّ المسمّى محليّا (البصّة)، تعرّضوا خلالها لاعتداءات فظيعة، وثّقوها بالصّور عندما خرجوا، وتظهر على أجسادهم آثار الضّرب المبرّح".[1]

2. الضّرب في كلّ زمان ومكان، يستخدم الاحتلال التّعذيب بالضّرب في كلّ زمان ومكان ومن غير مناسبة، وغالبًا ما يقوم به أشخاص ضخام الجثّة، وقساة، ومتوحّشون، ومن ذلك قوله: "فتح باب الزّنزانة فجأة، وأغلقه أحدهم بجسمه الضّخم. كنت ضئيلا جدًّا أمامه. جرّني من قميصي الممزّق إلى الممرّ الضّيّق بين الزّنازين، وكوّمني في زاوية، وحدث ما حدث: كلّ خبطة من قدمه الكبيرة على جسدي يلحقها بسباب بلغته الرّوسيّة".[2]

ثمّ تتوالى وجبات الضّرب حسبما يُقرّره ضبّاط التّحقيق، والّتي في بعض الأحيان تؤدّي إلى استشهاد بعض المناضلين؛ ففي معتقل الفارعة كان كلّ فوج من المعتقلين يأخذ من جنود الاحتلال وجبة من الضّرب أوّل وصوله إليه، وقبل الدّخول، قال: "وكان يتعيّن على كلّ فوج من المعتقلين أن يتلقّى وجبة من الضّرب قبل دخوله المعتقل، بالهراوات

[1] ن.م.، 63-64.

[2] ن.م.، 11-12.

والبساطير المعدنيّة".[1] كما كان المعتقلون يأخذون وجبات من الضّرب والتّعذيب طوال وجودهم في زنازين التّحقيق، قال: "وأقنعت نفسي بأن أنظر إلى ذلك كوجبة واحدة أُخرى من الوجبات الّتي تستخدم كتعذيب في الزّنازين".[2]

2- التّعذيب النّفسيّ:

يدرس رجال المخابرات الصّهاينة الّذين يعملون في الحكم العسكريّ، أو يتعاملون مع المواطنين الفلسطينيّين اللّغة العربيّة، واللّهجة الفلسطينيّة المحكيّة، وفي أحيان كثيرة يتقن بعضهم لهجات المدن الكبيرة المميّزة، كما يدرسون تاريخ فلسطين، والقضية الفلسطينيّة، والفصائل والأحزاب الفلسطينيّة، وقياداتها، ونقاط اللّقاء والخلاف بينها، كما يدرسون عادات الشّعب الفلسطينيّ وتقاليده العامّة، والخاصة بكلّ منطقة، أو حتّى عشيرة أو قبيلة، والأمثال الشّعبية الدّارجة، وبما يساعدهم في التأثير على نفسيّة المعتقل، ويدرسون الدّين الإسلاميّ وبخاصّة ما يفيدهم في التأثير على تفكير المعتقل، ونفسيته، وتعامله مع المُحقّقين، أو مع المعتقلين من فصائل أُخرى.

كما يدرس هؤلاء علم النّفس العام، وعلم النّفس الاجتماعيّ، وعلم النّفس التربويّ، وكلّ النّظريات النّفسيّة والاجتماعيّة الّتي تُمكّنهم من التأثير على نفسيّات المعتقلين، والايقاع بهم من أجل تسهيل الحصول على المعلومات المطلوبة، وتحطيم نفسيّة المعتقل، وإلحاق الهزيمة النّفسيّة به تمهيدًا لإيقاعه في شباك المخابرات، وتحويله إلى خائن لوطنه، وشعبه، وأُمّته، ودينه، أو تحويله إلى إنسان لا قيمة له، وإخراجه من دائرة الصّراع الّتي يديرها الكيان الصّهيونيّ ضد الشّعب الفلسطينيّ منذ ما يزيد على سبعة عقود.

وقد وجد هؤلاء أنّ التّعذيب النّفسيّ - في كثير من الأحيان - يكون أجدى، وأنفع من التّعذيب الجسديّ، الّذي لم يتخلّوا عنه أبدًا، وقد ابتدعوا وسائل عديدة للتّعذيب النّفسيّ، وتحدّث الكاتب عن بعضها بشكل مجمل، ثمّ فصّل في كيفيّة استخدامها من

[1] ن.م.، 24.

[2] ن.م.، 33.

خلال تجربته الشّخصيّة (القفص، والخزانة)، أو من خلال تجارب معتقلين آخرين، قال: "يلعب رجل الشّاباك دور الشّخص العارف، والمطّلع على دقائق الأمور، ولم يعد ذلك يعتمد على أسلوب التّعذيب التقليديّ، خصوصًا الضّرب، بل أساليب التّعذيب الّتي توصف بالنّفسيّة، مثل: الشّبح الطّويل، والقصعة، والثّلاجة، والخزانة، والهزّ، ووضع سماعات على أُذني المعتقل، تُطلق ضربات القدر لبيتهوفن بصوت مرتفع جدًّا، يشعر معها المعتقل وكأنّ قدره انتهى فعلًا. وجميع هذه الأساليب وغيرها، ثبت أنّها أجدى من الضّرب لانتزاع المعلومات، وبعضها خطير، مثل الهزّ العنيف الّذي أدى إلى استشهاد أسرى، خصوصًا في المسكوبيّة".[1] وقد ذكر الكاتب تعذيب المُحقّقين للمناضل "أبو رَموز" بالشّبح، والخزانة، حيث سمع أنينه من زنزانته، فخشي على حياته، قال: "مِن زنزانتي، سمعت أنّات أسرى، خصوصًا (أبو رَمْوز)، الّذي التقيته وأنا أُدخل زنزانتي لفترة وجيزة. ركّز المحقّقون عليه بشكل استثنائي، فأبقوه طويلًا تحت المطر والثّلج في ساحة الشّبح، كما وضع ساعات طويلة في الخزانة، وهي مكان للتّعذيب يشبه الخزانة، يوضع فيها المعتقل، فلا يتمكّن من الوقوف أو الجلوس أو التّحرك. كما مورست بحقّه جميع أساليب التّعذيب، لمعرفة مصدر السّلاح الّذي وجد في حوزته".[2]

وقد سرد الرّاوي (الكاتب) وسائل عديدة للتّعذيب النّفسيّ، ومنها:

1. الكتب الّتي أدخلها الصّليب الأحمر الدوليّ للمعتقلين في معتقل الفارعة، قال: "مِن الصّعب الآن التّعبير عن فرحتنا الكبيرة آنذاك، رغم أنّنا عرفنا بعد الاطّلاع على عناوين الكتب، أنّها جزء من السياسة النّفسيّة المتّبعة في السّجن.

[1] ن.م.، 74.

[2] ن.م.، 76.

كانت مُعظم الكتب دينيّة، أو الأصح، كما اتّضح لنا انصبّ التّركيز على نوع معين منها، مثل: كتب الجان وعذاب القبر، بالإضافة إلى كتب كولن ولسون. ومن بين الكتب الكثيرة الّتي صنّفناها كتبًا رديئة تدور حول الخزعبلات".[1]

2. سماع صراخ وأنين المعتقلين بعامّة، والمعتقلات الأمْنِيات الفلسطينيّات بخاصة، ففي معتقل المسكوبيّة، حيث كان الكاتب مشبوحًا في ساحة سجن المسكوبيّة، وعلى الرّغم من معاناته الّتي لا تُطاق إلّا أنّ ما زاد في معاناته هو سماع صراخ المعتقلات جرّاء شدّة الألم الناتج عن قسوة التّعذيب ووحشيّته. وقد امتدّ أثر ذلك الأنين والصّراخ على الكاتب إلى ما بعد خروجه من المعتقل، قال: "عرفت الفتاة، كانت هي الّتي يأتينا صوتها؛ تصرخ وتتألّم، ونحن مشبوحون في ساحة الزّنازين، وكان صراخها يُمزّق نياط القلب كما يقولون، كان عذابًا إضافيًّا أن تسمع صوت فتاة تتعذّب.

لم يكفّ صوت صراخها عن الوصول إليّ في ساعات الفجر، وأنا في الزّنزانة. كنت أضرب رأسي في الحائط الخشن: أي هوان هذا؟! لم أكن أتوقع أن أكون ضعيفًا إلى هذا الحدّ أمام صوتها. كنت أؤمن بضريبة المقاومة، وبأنّ العار هو الاحتلال، وليس نواح فتاة مقدسيّة في ظلمة فجر بارد قاس ... وظلّ نواح الفتاة، الّذي يشبه الاستغاثة، يتردّد لديّ في فترات عمريّة لاحقة، وعندما كنت أذكر ذلك لأصدقاء مقرّبين من المثقّفين، معتبرًا حزنها المعتّق "أمانة في أعناقنا"، كنت أواجه بعدم الفهم، وأحيانا بالسّخرية، وكان بعضهم يعتبرني "ساذجًا".[2]

3. محاولة المُحققين لعب أدوار مختلفة مع المعتقلين، بحيث يلعب أحدهم دور الحريص على خلاص المعتقل، والآخر دور الشّرير. ويأخذ ممثل دور الحريص بوعظ المعتقل، مستشهدًا بما يحفظه من الأمثال الشّعبيّة الفلسطينيّة وغيرها، قال: "المحقّقون لا يملّون من محاولة اختراق نقاط الضّعف، وهم جميعًا يحفظون عن ظهر قلب أمثالًا

[1] ن.م.، 25.

[2] ن.م.، 30.

عربيّة عديدة وآيات قرآنيّة، هي جزء من برامجهم التدريبيّة قبل التحاقهم بعملهم. يقول لك المحقّق الّذي يلعب دور الصّديق في مواجهة الآخر الشّرير: لماذا لا تحكي القصّة، احكِها يا أخي، أنا أريد مصلحتك، لماذا تحمي رفاقك؟ لو كانوا هنا لباعوك، ماذا ستستفيد؟ واضح أنّك طيّب، ومحترم، وابن ناس، وليس وجه بهدلة. يا أخي: كلّ عين تبكي ولا عين أُمي تبكي، أليس هذا ما تقولون؟ يا أخي: حطّ رأسك بين الرّوس، وقل يا قطّاع الرّوس!، امش الحيط الحيط، وقول يا ربي السّتر!، الشّهر الّذي ليس لك فيه أي شيء، لا تعدّ أيامه!".[1]

وأحيانًا يقوم المحقّق عند نهاية دوامه بالحديث مع المعتقل الّذي يرفض الاعتراف، بأنّه سيبقى في السّجن فيما هو سيلتقي عشيقته، ويعيش حياته، وذلك في محاولة للتّأثير النّفسيّ على المعتقل، قال: "عندما يُقرّر محقّق، حتّى يؤثر نفسيًّا عليّ، قبل عودته إلى منزله، أن يمرّ على الزّنزانة، بكامل أناقته، وهو يحمل حقيبته، ويضع نظارته الشّمسيّة على عينيه، أو رأسه، أو يمسك بها، بتظاهر واضح، بيديه، ويقول: كيفك الآن يا بطل، لا تريد أن تحكي القصّة، لا يهمّ، لا نُجبرك على شيء، كما ترى، نحن احتلال ديمقراطيّ، ابْقَ هنا، أما أنا فسأكون بعد قليل في حضن عشيقتي!

وبعد أن يقيس تأثير وقع كلامه علي يقول: لا تعرف طعم النّساء، تراك لم تجربهن ولا مرّة، لو كنت مكانك، لما بقيت في هذا المجتمع ولا لحظة، كنت سأهاجر إلى مواطن الشّقراوات".[2]

4. قيام الطّبيب الشّرطيّ بتفحّص جسم المعتقل وهو عار تمامًا، أمام مكتبه، في السّاحة العامة الّتي يمرّ فيها كلّ فئات العاملين الصّهاينة في المعتقل من ذكور وإناث، وتعمّد الشّرطيّ الطبيب إطالة مدّة التفحّص، مع ما يقوم به ذلك الشّرطيّ الطّبيب، والشّرطيّ المرافق له من هزء وسخرية بالمعتقل، فضلًا عن إبدائه حالة من الاشمئزاز من إجابة

[1] ن.م.، 41.

[2] ن.م.، 43.

المعتقل على أسئلته، فيظهر الطّبيب جزءًا من آلة التّعذيب الصّهيونيّة النّفسيّة الّتي تستخدم لقهر المعتقلين، قال: "كان الطّبيب يطرح أسئلته بتقزّز، وعلى السّجين أن يرد على كلّ سؤال مَسبوقًا بنعم سيدي، وعندما لا يفعل، ينهض الطّبيب من خلف طاولته، ومعه مساعداه، لِيُذكِّروا السّجين عمليًا بعقوبة تجاهل عبارة نعم سيدي، ولتتحوّل سماعته إلى أداة للضّرب. كان الطّبيب وكلّ مَنْ في السّجن ينفذون أوامر مشدّدة ضد أجيال جديدة صغيرة من الفلسطينيّين تنضم إلى مسيرة النّضال الوطنيّ الّتي طالت أكثر ممّا يجب".[1]

5. الشّبح الطويل، والقصعة، والثّلاجة، والخزانة، والهزّ، وغيرها. حيث استشهد عدد من المعتقلين الّذين تمّ تعذيبهم بهذه الوسائل، قال: "مِن زنزانتي، سمعت أنّات أسرى، خصوصًا (أبو رَمْوز)، الّذي التقيته، وأنا أُدخل زنزانتي لفترة وجيزة. ركّز المحقّقون عليه بشكل استثنائي، فأبقوه طويلًا تحت المطر والثّلج في ساحة الشّبح، كما وضع ساعات طويلة في الخزانة، وهي: مكان للتّعذيب يشبه الخزانة، يوضع فيها المعتقل؛ فلا يتمكّن من الوقوف، أو الجلوس، أو التّحرك. كما مورست بحقه جميع أساليب التّعذيب، لمعرفة مصدر السلاح الذي وجد في حوزته. كان أبو رَمْوز يعرف أنه سيمضي سنوات طويلة في السجن، فحمّلني وصايا وسلامات إلى أسرته وأبنائه؛ أما أنا فكنت ارتعد خوفا عليه من ملاقاة مصير "أبو محمّد"، والعوريّ الّذي قضى في بركة الصقيع".[2]

6. المرآة في الزنزانة تحوّلت إلى أداة من أدوات التّعذيب النّفسيّ، وبخاصة مع مرور الأيام، وتراكم آثار التّعذيب على الوجه، وبقية أجزاء الرأس والعنق، فعندما ينظر المعتقل في المرآة، ويرى التغيير المستمر على جسمه، يكره وجهه، وأجزاء أخرى من جسمه، قال: "لم أستغرب سوى وجود مرآة، لونها يميل إلى السواد، وعندما تنظر فيها، يبدو شكلك موحشًا. علمت فيما بعد أن هذا النوع من الزنازين رُمِّم حديثا، لإرضاء الصّليب الأحمر،

[1] ن.م.، 24.

[2] ن.م.، 76.

ومن ضمن التّحسينات الّتي أُدخلت، المرآة المزعجة، والمعذّبة. وبمرور الوقت على نزيل الزّنزانة، يُصبح تأثيرها النّفسيّ السّلبيّ، مخيفًا، فكلّما نظر إليها السّجين، يرى وجها آخر موحشًا غير الّذي ألّفه، ويتطوّر شكل هذا الوجه الوحشيّ، مع عدم إمكانية تسريح الشّعر، وتجعّده، وتغلغل الأوساخ في ثناياه، ونموّ اللّحية في وجه لا يعرف الماء إلّا لمامًا، وكلّ ذلك يجعل السّجين في حيرة مع هذا الوجه الجديد عليه، هل هو وجهه فعلًا، أم وجهٌ آخر رُكّب له دون أن يدري؟ سيكره هذا الوجه، وربّما يكره أعضاء أُخرى من جسده، عندما يجدها مستباحة دون أن يكون باستطاعته أن يفعل شيئًا لحمايتها".[1]

7. الزّمن، حوّل الاحتلال الصّهيونيّ الزّمن ما استطاع إلى أداة من أدوات التّعذيب النّفسيّ، الّتي مارسها ضدّ المعتقل، وسعى من خلالها إلى إسقاطه، وتحطيمه، ومن ذلك: أنّه استخدمه في أوّل الاعتقال للتّمويه على المعتقل، ومنعه من معرفة الطّريق الّتي يسلكها، ولا المعتقل الّذي سينقل إليه، قال: "والأهم هو أنّه يحاول الإمساك بالوقت، بالزّمن، ليعرف الوجهة الّتي ينقل إليها... فعادة ما تسلك السّيارة العسكريّة طرقًا طويلة، أو تلفّ وتدور في طرق معينة، لتتأخّر في الوصول إلى هدفها، في محاولة، دائمًا ما تكون فاشلة، للتّمويه على المعتقل، كي لا يعرف السّجن الّذي ينقل إليه. الطّريق إلى المعتقل، أو النّقل من معتقل إلى آخر، كثيرًا ما تكون صعبة، وتترك آثارًا نفسيّة وجسديّة على المعتقل الأسير الّذي يكون حَمَلًا صغيرًا وسط مجموعة من الجنود المستنفرين، الّذين يجعلون منه طوال الطّريق تسليتهم المفضلة".[2]

كما يُستخدم الزّمن للتّعذيب النّفسيّ في أثناء عملية الانتقال من زنازين التّحقيق إلى غرفة رقم (12) المسمّاة " المعبار"، قال: "فبعد إخراج الأسير من الزّنازين إلى غرف سجن المسكوبيّة، يتعيّن عليه الانتظار فترة، لا يعرف أحدٌ مداها، لينقل إلى السّجون المركزيّة الأكثر تنظيمًا. وفترة الانتظار هذه تعتبر سيئة بالنّسبة للأسرى، لأنّها تحمل نذر

[1] ن.م.، 69.

[2] ن.م.، 67.

إعادتهم إلى الزّنازين من جديد، وإلى ظروف الاعتقال اليوميّة الصّعبة، مع السّجناء الجنائيين، وكثير منهم سجناء يهود".[1]

وفي كلّ الأحوال الزّمن نسبيّ. وفي فترة التّحقيق يحرص الاحتلال على توظيفه سلاحًا نفسيًّا ضد المعتقل، قال: "لا أعرف كم مضى من الوقت، وأنا أقف خارج الغرفة، الّتي يصعب نسيان ما كان يجري فيها. وكلّما حاولت أن أحرك أحد أطرافي، أتعرّض للكمة على رأسي أو جنبي، أو رفسة على إحدى رجليّ. من الصّعب تحديد الزّمن أو معرفة الوقت، الزّمن في السّجن غير الأزمان في الخارج، وزمن الزّنزانة غير زمن الشّبح، وهذا غير زمن التّحقيق، وهذا غير شبح الكرسيّ، وهذا غير زمن تعذيب الخزانة".[2]

ويُصبح الزّمن هاجسًا يلاحق المعتقل في كلّ مراحل اعتقاله، قال: "الزّمن نسبيّ في المعتقل، عندما تكون في الزّنزانة تكون أقصى أمانيك الخروج منها إلى غرف السّجن. وعندما ينتهي التّحقيق وتنضم لزملائك في الغرف، تصبح أيامك ثقيلة الوطأة. وإذا كنت تعلم أنّ أمامك فترة طويلة في السّجن، تصبح أمنيتك الانتقال إلى سجون مركزيّة. أمّا إذا علمت أنّك ستمضي أيامًا وتخرج، فتصبح الأيام طويلة والانتظار أصعب، كلّما اقترب الموعد تزداد الأيام طولًا، حتّى يُخيل إليك أنّها لن تنقضي".[3]

8. المكان، يحرص الاحتلال على جعل المكان الّذي يوجد فيه المعتقل أداة تعذيب دائمة، تمامًا كما يفعل بالزّمن، ومن ذلك: الجيب العسكريّ، ومكان التّوقيف، والزّنزانة بكلّ ما فيها من أمكنة غير معتادة، وبخاصّة الفتحة، وساحة الشّبح، وغرفة المحقّق، وغرفة تجميع الأسرى تمهيدًا لتوزيعهم على المعتقلات، المسمّاة "المعبار"، وسيّارة نقل الأسرى من سجن إلى آخر، "البوسطة"، وغرف السّجن المركزيّ، وغيرها.

[1] ن.م.، 60-61.

[2] ن.م.، 6.

[3] ن.م.، 85.

المكان، أي مكان يمرُّ فيه المعتقل يُسبب له حالة رعب غير مسبوقة، بحيث يتمنّى أن يخرج منه إلى مكان آخر، ثمّ ما أن يصل هذا الآخر يتمنّى أن يخرج إلى مكان ثالث، وهكذا؛ لأنّه لم يألفه، ولا يريد أن يألفه أساسًا، وبخاصّة أنّ بعض تلك الأمكنة تكون سمعتها سيئة للغاية عند المعتقل، كما هو الحال في المسكوبيّة، الّتي يعرفها المعتقلون باسم "المسلخ" لِشدّة التّعذيب الّذي يُمارس على المعتقلين فيها وقسوته، حيث استشهد فيها عدد من المناضلين تحت التّعذيب الوحشيّ، قال: "تمنيت أن يكون هناك خطأ جعلهم يخرجوني من زنزانتي إلى ما تصوّرت أنّه جولة جديدة من التّحقيق، وتخيّلت كيف سأقضي مشبوحًا هذه الليلة الماطرة الباردة، في السّاحة، الّتي تعتبر زنزانتي بالنّسبة لها جنّة".[1]

ويوضح الكاتب السّبب الّذي يزيد من رعب المكان فيقول: "لا أعرف كم بابًا فتح، كم بابًا أغلق، حتّى أوصلني إلى المكان الّذي دخلت منه إلى المسكوبيّة".[2]

وفي وصف الكاتب لزنزانته في المسكوبيّة أقوى تعبير عن الدّور الّذي يقوم به المكان في إيقاع تعذيب دائم على المعتقل، قال: "في هذه الزّنزانة، لا يمكن أن تعرف الوقت نهارًا أم ليلًا، فهي مغلقة إلّا من فتحة صغيرة في السّقف، لا يوجد فيها إلّا جردل لقضاء الحاجة، ويتمّ عادة وضع الأسرى الّذين يخضعون لتحقيق قاس فيها ... خلعت الحذاء، ووضعته تحت رأسي، وتمدّدت على البرش، شاعرًا بأرضيّة الزّنزانة الباردة الجافة، أرتعد من البرد، ولم أتمكّن من التمدّد إلّا دقائق معدودة، فالبرد توغل في العظم. وقفت، ثمّ قصدتُ زاوية الزّنزانة القصية، جلست مُقرفصًا، ضامًّا رجليّ إلى صدري، بواسطة يديّ، علّني أكتسب شيئًا من الدفء".[3]

3. التّعذيب بالشَّبْح

[1] ن.م.، 5.

[2] ن.م.، 123.

[3] ن.م.، 107.

الشّبح طريقة تعذيب صهيونيّة بامتياز تستخدم لتعذيب المعتقلين الفلسطينيّين، ويمكن أن يُدخل عليها ضابط المخابرات ما يشاء من الإضافات الّتي يرى أنّها تُسرّع في قهر المعتقل، وإجباره على الاستسلام، وإعطاء المعلومات الّتي يريدها الضابط المُحقّق. لكن الشّبح بعامّة كما عرّفه الكاتب هو: "تَغْطِيَة الرأس، وتقييد اليدين إلى الخلف، وإيقاف المشبوح ساعات طويلة في مكان معين، وإذا بَدرت منه أيّة حركة، يفاجئه الشّرطيّ المناوب بضربة عصا، أو بكفّ مباغت على صدغه، أو يعاقبه بوضع كيس خيش آخر على الرّأس، ليصبح التّنفس أكثر صعوبة".[1]

وقد يُضاف عليه: الوقوف على رجل واحدة مدّة يحدّدها الشّرطيّ الحارس، أو الجلوس على كرسيّ وهو مربوط اليدين إلى خلف الكرسيّ، أو التّعرّض لتيار هوائيّ بارد، أو سكب المياه عليه، وفي أغلب الأحيان تكون مياهًا غير صالحة للاستخدام البشريّ، أو أن يكون الشّبح في الجو البارد عند تساقط المطر الشّديد، أو الثّلوج، أو في الحرّ الشّديد.

ويترك الشّبح آثارًا جسديّة ونفسيّة كارثيّة على المعتقلين، وبخاصّة عندما يبول في ملابسه، وتتفاعل الرّوائح الكريهة المنبعثة من كيس الخيش مع المطر والبرد، أو الحرارة والعرق، وتتفاوت تلك الآثار ما بين معتقل وآخر، فيكون الأذى قاسيًا، وقد وصف الكاتب بعض معاناته من الشّبح، قال: "يشعر المشبوح، بعد أن يتأقلم بأنّ أصعب ما يواجهه هو البَرد، الّذي يتغلغل في العظام، وإذا كان جرّب الاعتقال في الصّيف، يأخذ في المقارنة بين الظّرفين، بين البَرد المخيف، والعرق الّذي يعمي العينين، المختفيتين تحت الخيش القذر. والمعتقل في الصّيف يتمنّى لو أنّ الدنيا شتاء، وفي ظلّ البَرد الّذي ينخر كلّ ذرة في الجسد، يتذكّر الصّيف ويتمنّاه. يمكن احتمال حرارة الصّيف، أما ثلج آذار هذا، الّذي لم يخطر ببال، فهو يفوق القدرة على الاحتمال.

يطول الشّبح ساعات طويلة، ويصبح غير الممكن ممكنًا، فالمشبوح، الّذي يمسك نفسه عن التّبول، يأخذ، في نهاية الأمر، عند اشتداد آلام المثانة، قرارًا لا إراديًا بإراحتها،

[1] ن.م.، 71.

ومثل كلّ الأمور، تكون الصّعوبة في البدايات. ومع مرور السّاعات، تستمرّ المصاعب، وآلام الرأس لا تُقاوم. اليدان لا شعور بهما، والكتفان والرّجلان، أمّا العينان والأنف والآذنان، والفم، والحلق، واللّسان، والرّقبة، فلا توجد أيّة كلمات يمكن أن تعبر عن وضعها تحت الخيش. واستمرار سقوط الثّلج دون التفاتة لمعاناة المعتقلين من الطّبيعة والسّماء والأقدار، شيء مخيف، يصل بالمشبوح إلى قرارة بئر عميق..عميق، يبدو أنّه نهاية للعالم".[1]

4. التّعذيب بالماء

حوّل جنود الاحتلال، وشرطته، ومُحقّقوه الماء من نعمة إلهية إلى نقمة تنزل على المعتقل الفلسطينيّ، في أيّ وقت من أوقات السّنة، وفي فصل الشّتاء بخاصة، وقد ورد استخدام الماء وسيلة من وسائل التّعذيب الأشدّ قسوة على أجساد المعتقلين، أو نفسياتهم مرّات عديدة، ومن ذلك:

أ- ما حصل للكاتب نفسه في سجن المسكوبيّة، حيث أجبر على خلع ملابسه في البرد ليفحصه الشّرطيّ الطّبيب عاريًا في برد آذار المثلج، كما أنّ الشّرطيّ أجبره على نزع سترته ووضعها فيما يُسمّى الأمانات، ما زاد من آثار البرد على الكاتب، ثمّ تمّ شبحه في السّاحة، فتساقط عليه الثّلج فزادت رائحة كيس الخيش نتانة، وكاد جسده يسقط تحت ندف الثّلج، قال: "هذه الروائح يزيدها الثّلج نتانة" ثمّ فصّل أثر الثّلج عليه، وجعله الجحيم الّذي لا مثيل له، بحيث يشتكي الألم من الألم، وعلى الرّغم من ذلك؛ فإنّ الألم الّذي سبّبه الثّلج للكاتب، جعله يرافقه خارج السّجن، فيتذكّره كلما سقط الثّلج، وأخذ يحدّث أصدقاءه عنه، حتّى قال في حديثه لصديق إنّ وصف برد الثّلج بحاجة إلى عبقريّ ليصفه بدقّة، فقال: "الآن أشعر بكتل هشّة تنزل من فوق، لتتهشم على جسدي الّذي يرتعد كلّ شيء فيه، حتّى يديّ المربوطتين خلفي ولا أشعر بهما منذ فترة. يداي تعودان لتصبحا مصدر ألم مع هشيم الثّلج. ولم أعد أُقدّر الوضع بالنّسبة لقدميّ، لم تعد لديّ ثقة في

[1] ن.م.، 71-72.

أنّهما ما زالتا تحملانني أم أنّهما انفصلتا عني... لكن الثّلج في المسكوبيّة يتحوّل إلى جحيم. لا شيء مثل البرد يمكن أن يؤثر في الجسد، ينخره حتّى يشتكي الألم من الألم، ويحبس المعتقل آهاته في أعماق أعماقه، ثمّ يبدأ مفعول البَرد من جديد، في دائرة تصل ذروتها خلال ثوان، يشعر فيها المعتقل أنّه وصل قعر العالم، واستقال من هذه الدنيا. يصبح التّلاشي والذوبان في هواء القدس، حتّى يأخذه ويبدّده، أمل المعتقل المشبوح في المسكوبيّة. لكن الأمر ليس بهذه البساطة، فدورة البرد لا تنتهي، إلّا لتبدأ مرة أخرى، وثالثة، وعاشرة من جديد.

اقتنعت، لا أعرف كيف، بأنّ لون ثلج المسكوبيّة، الّذي لا أراه، أسود، لا يمكن أن يكون أبيض أبدًا. النّاس في بلادي، لأسباب ما زلت أجهلها، يحبّون البياض ويغنّون له، لا بدّ أنّ ثلج المسكوبيّة يختلف عن ثلجنا، ثلج المسكوبيّة أسود، وثلجنا أبيض ... في يوم ما قلت لصديق: "لن يقدّر لي أبدًا أن أكتب عن البرد، بَرد المسكوبيّة. أقرأ وأسمع عن كتّاب عباقرة. بَرد المسكوبيّة يحتاج إلى كاتب عبقري، هو بالطبع ليس أنا. أنا ما أزال أرتجف عندما تغضب السّماء، وترعد، وتثلج، وترسل لنا حبّات البَرد، وأتذكر أولئك الأشخاص المشبوحين في المسكوبيّة".[1]

وكما كان يحدث معه عندما يقوم الشّرطيّ بإجباره على الاستحمام بالماء البارد فجرًا، ثمّ يأخذ بإعطائه حمّامًا ساخنًا يتبعه حمّامًا باردًا مرّات متتالية، قال: "عندما يفتح باب الزّنزانة في ساعات الفجر، ويمسك بي الشّرطيّ من قميصي، ويدفعني أمامه، ويفتح بابًا آخر ويرميني تحت حنفية ماء، ويطلب مني أن أخلع كلّ ملابسي وفتح الماء، بينما يقف مُبحلقًا في كلّ أنحاء جسمي، وكأنّه يريد أن يفترسني، وعندما أرتعد مِن البَرد وأحاول الخروج من تحت الماء، يفاجئني، برمي ليفة إليّ، وقطعة صابون، ويطلب منّي أن أستحم من جديد، وهو لا يكف عن التّحديق. ثمّ يطلب منّي التّركيز في فرك جسمي باللّيفة على مناطق معينة، ويرفض أيّة محاولة للمناورة،

[1] ن.م.، 73-74.

ويأمرني بالعودة إلى الماء البارد. كنّا نخشى دائمًا من الميول الشّاذة لدى الشّرطة، ونتنبه لأيّة محاولة اعتداء متوقعة، فننسى برودة الماء. ولا يقتصر طقس حمّام التّعذيب على الماء البارد، فبعده يأتي دور الدوش السّاخن الحارق، ثمّ يتبعه البارد فالسّاخن وهكذا، حسب ما يقرّره المحقّق".[1]

ب- ما حصل مع المناضل" أبو محمّد" الّذي كان يعيش في مخيم الدهيشة، ويمشي على عكّازين، جراء التّعذيب بالماء البارد، كما قالت له أمّه، قال: "كان أبو محمّد، أنموذجًا نضاليًّا بالنّسبة لي، وأنا طفل صغير، وطالما فسَّرت لي أمي سبب مشيه على عكّازين بالتّعذيب داخل السّجون. وبعد سنوات سمعت شهادات من زملاء له كيف كان المحقّقون يُجبرونه على خلع ملابسه، ويغمرون جزءًا من جسده بالثّلج، لانتزاع الاعترافات منه، وبسبب ذلك لازمه المرض، وبعد سنوات رأيته في مستشفى أوغستا فكتوريا ... رأيته وهو يحتضر وحيدًا".[2]

ج- ما حدث للشّيخ محيي الدّين علّان العوريّ، المناضل الّذي "أكل" عذاب الاحتلال البريطانيّ، والاحتلال الصهيونيّ، فأفلت من الأوّل، لكنّه لم يُفلت من الثّاني، حيث قرّر المُحقّقون الصّهاينة في سجن رام الله قتله بطريقة غير مسبوقة، إنّها القتل من خلال وضعه أيام الصّقيع في بركة ماء مُثلّج، قال: "وكان شاهدًا على تعذيبه بوضعه في بركة ماء أيام الصّقيع، فترات متقطّعة، وفي إحدى المرات لم يحتمل الجسد المنهك الماء المثلّج، فتوقف القلب عن الخفقان، وبرّر المُحقّقون وفاته، بأنّ الشّرطيّ المناوب نسيه أكثر من اللّازم في بركة الصّقيع".[3]

ويظهر بوضوح أنّ الكاتب كان لا يحتمل البرد، وبخاصة في شهر آذار حيث حدّد تاريخ استشهاد المناضل محيي الدّين العوريّ بصقيع ذلك الشّهر، قال:"... وبقي

[1] ن.م.، 33-43.

[2] ن.م.، 72.

[3] ن.م.، 72.

متماسكًا، حتّى أسلم الرّوح في بركة الصّقيع، وكان ذلك في آذار أيضًا، يوم 2-3-1971م: ما هي المشاهد الأخيرة الّتي مرّت في ذهن ثوريّ عجوز، وهو ينسلّ من الدنيا، وينخر البرد جسده؟ هل تمكّن من الإمساك بلحظات سلام أخيرة، وشريط حياته يمرّ سريعًا؟ هل توقّف عند مشاركته في مقاومة البريطانيّين، الّذين طاردوه ولم يتمكّنوا منه، وعاش حتّى يشهد على احتلال جديد، يقرّر محقّقوه قتله بطريقة غير مسبوقة".[1]

ثانيًا- أنواع العذاب الفرعيّة

المقصود بهذه الأصناف هو: طرائق التّعذيب الّتي يُمارسها ضد المعتقلين الفلسطينيّين كلّ مَنْ يوجد في المعتقل من الصّهاينة بشكل غير منظم – غالبًا -، ففي اللّحظة الّتي يمرُّ بها هذا الصّهيونيّ أو ذاك ويرى معتقلًا يقوم بتعذيبه بما يخطر على باله، فهذا يرفسه برجله، وذاك يلكمه بقبضته، وثالث يشتمه، ورابع يبصق عليه، وخامس يُهدّده ويتوعّده، وسادس يدفع كلبه لينبح نباحًا صارخًا ومفاجئً على المعتقل، فيكون الأثر النّفسيّ رهيبًا، وهكذا. وربّما يقوم ضباط المخابرات بتحديد صنف خاص من العذاب للمعتقلين الّذين يتمّ اعتقالهم بشكل دوريّ كما حدث مع الكاتب، ومن صنوف العذاب الفرعية هذه:

[1] ن.م.، 73.

1. القفص: العذاب بالقفص عقاب خصّ به ضابط المخابرات الكاتب، حيث بعد وصول المعتقلين إلى مركز "البصّة" بوقت قصير تمّ فصله عنهم، ووضعه في قفص حديديّ ليأخذ وجبة عذابه الخاصّة، قال: "ثمّ نظر إليّ: أمّا أنت فستكون حصّتي.

قادني أحد الجنود إلى سيارة أخرى، غير تلك الّتي وضعوا فيها الشّباب ... أمّا أنا فوضعوني في قفص حديديّ مستطيل بحجم غرفة صغيرة، طالما خبرته قبل هذه المرّة، وكان ذلك تمهيدًا لنقلي إلى المسكوبيّة للتّحقيق.

يقع القفص الحديديّ في ممرٍّ رئيسٍ للجنود والضّباط، الّذين لا يُوفر معظمهم فرصة المرور دون شتم المعتقل الموجود في القفص، أو لكزِه بطرف البندقيّة، أو صفعه، وربما يتجمّع أكثر من واحد لإذلال المعتقل، وضربه، أو البصق عليه، أو الإتيان بأي شيء آخر لإهانته.

عادة ما يقف أحد الجنود بجانب القفص، ليقوم بدور الحراسة. وبعد فترة ليست طويلة من وجودي في القفص، استطعت أن أُقدّر أنّ الجندي الحارس كثير التبرّم".[1]

2. التّعذيب بإثارة الغريزة الجنسيّة، استخدم الاحتلال الإثارة الجنسيّة وسيلة لتعذيب المعتقلين كلّما لزم الأمر، ووفقًا لطبيعة المعتقل، وقد كانت تلك الإثارة مدعاة لممارسة الضّرب، والإذلال ضد المعتقلين، ومن ذلك:

أ. معاكسة شرطة الاحتلال الشّرطيات، وما يتبع ذلك من شتائم جنسيّة، وأحيانًا يتبادلون الشّتائم مع السّجناء، ومن ذلك، قول الكاتب: "تركني الشّرطيان عند زميلهما، بعد أن عاكسا شرطيّة سمينة كانت تجوس أمام المكتب، لكنّها ردّت بشتائم جنسيّة. كان ذلك أمرًا طبيعيًا بين الشّرطة أنفسهم، أو ضدّ السّجناء، وبدا لي أنّها اللّغة الّتي يفهمونها، وأنّها من مستلزمات المهنة".[2]

[1] ن.م.، 63.

[2] ن.م.، 15.

ب. ما كان يمارسه الضّابط أبو الفهد مع مجندة شقراء أمام المعتقلين في مركز توقيف بيت لحم المعروف بـ "البصّة"، قال: "كان أبو الفهد، الضّابط العراقيّ اليهوديّ الضّخم؛ ضخم الجثة، والرّأس، والشّارب، والأطراف، يحتضن مجنّدة صغيرة، تكاد تذوب بين ذراعيه، يَمُرّ مِن أمام غرفتنا، وينظر إلينا ويضحك. كنت أدرك أنه يستفزُّنا، ولكنّي لم أدرك حجم الاستفزاز الّذي يمكن أن يشكّله تصرفه لزملائي المعتقلين من الجامعة. وفي أجواء الاستفزاز هذه، وأبو الفهد يمرّ من أمامنا مقبلًا ويعود مقبلًا، بدت السّخرية تسري في أجسادنا، وفوجئنا بوليد يقول بصوت خفيض هامس: أدخلها إلينا.. شوية!

ولا نعرف كيف سمع ما قاله. ترك أبو الفهد عصفورته الصّغيرة تسرّح شعرها بيديها، ونادى على جنديّ يحمل المفاتيح، وطلب منه فتح الغرفة، وطلب منّا الوقوف جميعًا ووجوهنا إلى الحائط، وأراد أن يعرف مَنْ هو صاحب الجملة. حاول بعضنا أن يقول إنّها لم تصدر مِن غرفتنا، ولكن الضّابط الّذي أمضى سنوات عمره الأولى في موطن أكراد العراق قال، وهو يفتل شاربه الضّخم: عيب على هالشّارب إن لم أُلقنكم درسًا إذا لم تقولوا مَنْ هو قليل الحياء الّذي بينكم.

وبالطّبع رفضنا جميعًا الإشارة إلى وليد، واقتادنا خارج الغرفة، وعندما عدنا لم نستطع النّوم لعدة ليال، بسبب ما تعرّضنا له من ضرب.

وعندما أصبح أبو الفهد يمرّ، وهو يهصر المجنّدات تحت ذراعيه، يضع أقرب واحد فينا يده على فم وليد، كي لا يتكلّم، ولكنّنا جميعًا نطلق النكات الّتي تطفو على شفاهنا فجأة، ولا نعرف من أين أتت. أمّا أبو الفهد، فلم يعد يسمعنا، أو لم يرد ذلك، مدفوعًا على الأرجح بغرور شرقيّ، تدغدغه مراقبتنا لما يفعله مع العصفورة اليهوديّة الغربية الشّقراء".[1]

[1] ن.م.، 15.

3. تعرية المعتقلين أمام صديقات المحقّقين، وضرب أعضائهم التناسليّة، كما حصل مع الكاتب نفسه، عندما عرّاه المُحقّق أمام صديقته، ومجنّدة، وأطعمه وجبة من الضّرب على كلّ أجزاء جسمه، وعلى عضوه الذكريّ بخاصّة، قال: "بينما كانت تقف هي خلفه تداعب شعره بيديها.

قال لي وهو منشرح: احكِ القصّة!

أجبته: أخبرتك لأنّه لا توجد قصة لأحكيها.

. كلّهم اعترفوا عليك.

. إنّهم يكذبون.

. أنا زهقت، هل تريد أن تحكي أم لا؟

. قلت لك: لا توجد قِصة.

نهض مِن خلف مكتبه، وطلب منّي أن أخلع البنطال، الّذي كان فضفاضًا، بسبب مصادرة الحِزام قبل الدّخول إلى الزّنازين. نظرت إليّ مجندته الّتي بدا وجهها محايدًا، فقال لي: تريد يافا أن ترى عورتك. أنت لا تعرف الوضع الّذي وصلت إليه، امرأة، ويهوديّة، تتصبب على عورتك، مو عيب عليك؟

كنت أعددت نفسي لأكثر من هذا، وكنت مصمّمًا على الصّمود، فخلعت البنطلون، لكنّه هزّ لي بعصا صغيرة في يده، طالبًا أن أخلع القطعة الّتي تغطيني، والّتي كانت بيضاء فاصفرت بسبب منعي من التّبول أثناء الشّبح، فخانتني عضلات المثانة.

تلكّأت في خلع القطعة، وفوجئت بما تحتها، ما زال لي ذلك العضو الّذي نسيته، لكنّه كان غافيًا ومختبئا في كهفه لا يكاد يُرى، ويبدو أنّ المحقّق فوجئ هو الآخر، وأطلق ضحكة مجلجلة: سأصحيه لك يا ابن الـ....!

تقدم إليّ من خلف مكتبه، وطلبَ منّي رفع يديّ وشبكهما خلف رأسي. لم أكن أعرف ماذا ستكون الخطوة المقبلة، ولا متى ينتهي ما يحدث، ولا لماذا أصلًا يلجأ إليه المحقّق، وماذا يريد بالفعل؟ فوجئت بِضَرْبَة قوية من عصاه أسفل بطني فصرخت، وبحركة لا

شعوريّة وجدت نفسي أغطّي المنطقة بيدي، لكنّه لكمني على وجهي، وألقاني أرضًا، وطلب مِن مجندته تكتيف يديّ خلف ظهري، وأنا أَئِن من الألم. جلس على رجليّ كي لا تتحرّكا، واستمرّ في ضربي في تلك المنطقة بخفّة، وأنا أتألم. شعرت بأنّ عينيّ تنزّان دمًا، فتوقعت أن تقفزا من مكانهما.

وفجأة رأيته يقف وهو يقهقه ويقول لي: انظر: لقد استيقظ!

كان منظره يثير الضّحك حتّى لواحد مثلي رأى الموت بعينيه قبل لحظات، أو هكذا خيّل إليّ، وقلت في نفسي: ما هذا المجنون؟ لكنّي نظرت إلى حيث كان ينظر بانتصار، ففوجئت بما رأيت. طلب منّي الوقوف، ولم أقو، فحملني وأوقفني وقال لمجنّدته: هل رأيت عضو ابن الفاعلة! ثمّ خاطبني: قلت لك إنّ يهوديّة سترى عَوْرَتك، اخص عليك! انتهتُ على الشّرطيّة الغليظة تطلب منّي الوقوف، وأن اتبعها، سارت أمامي".[1]

4. ممارسة جنود الاحتلال وشرطته: الضّرب، والدّفع، والشّتم، والرّفس، وغيره من صنوف العذاب ضد المعتقلين في كلّ الأوقات، والأماكن تسلية، وساديّة. ومن ذلك، ما فعله معه رجلا الشّرطة خارج مكتب ضابط المخابرات، قال: "دخل مكتب رجال المخابرات، وتركني مع الاثنين خارجًا. ربّما لا تصلح كلمة توتّر لوصف وضعي النّفسيّ في تلك اللّحظات ... لا أعرف كم مضى من الوقت، وأنا أقف خارج الغرفة الّتي يصعب نسيان ما كان يجري فيها، وكلّما حاولت أن أحرّك أحد أطرافي، أتعرّض للكمة على رأسي أو جنبي، أو رفسة على إحدى رجليّ. مِن الصّعب تحديد الزّمن أو مَعْرِفَة الوقت ... كلّ أعضاء الجسم تتألّم من آثار الجروح والرّضوض"[2] .

وقد واصل الشّرطيان تعذيبهما له حتّى انتقلا من مسؤوليتهما إلى مسؤولية شرطيّ آخر، قال: "انتهت على أيدي الشّرطيين اللّذين لا يكفّان عن دفعي، والسّاحة خلفي.

[1] ن.م.، 17-18.

[2] ن.م.، 13.

حاولت اختلاس النّظر إلى المشبوحين من المعتقلين الجدد، لكنّ أحدهما نهرني دافعًا رأسي إلى الأمام: لا تنظر خلفك!

وقفنا أمام باب، طرق عليه أحد الشّرطيين ليفتح، أخذ يهمر ويرفع صوته بشتائم على أشخاص يسمّيهم بالاسم، لعلّهم زملاء له خلف هذا الباب. دخلنا ثلاثتنا، ونظر إليّ شرطيّ كان يجلس خلف مكتب، تفحّصني بقرف، ربّما شمّ رائحتي، أو تقزّز من شعري الطّويل المنفوش من كثرة ما تعرّض للشدّ في الأيام الماضية، حتّى خلت أنّه سيقتلع من جذوره".[1]

كما يتعرض الأسرى للضّرب، الإهانة والإذلال، والقهر النّفسيّ خلال نقلهم بما يسمّى "البوسطة"، قال: "وخلال النّقل فيما يسميه الأسرى بالبوسطة، يتعرّض الأسير إلى الإهانات والضّرب، وغالبًا ما تكون البوسطة مركبة كبيرة، زنزانة كبيرة مغطاة، لا توجد فيها سوى فتحات صغيرة جدًّا. وهي تشبه الخزّان المغلق، الّذي يستخدم لنقل الأسرى، والّذين يتحمّلون داخلها أبشع أنواع الإذلال والعقاب، ويتعرّضون للضّرر الصحيّ، فهي مليئة بالأوساخ وتنبعث منها الرّوائح الكريهة".

وفي معتقل الفارعة العسكريّ تعرّض المعتقلون الأشبال إلى خلاصة ما توصلت إليه عقول خبراء جيش الاحتلال من أساليب تعذيب جسديّة، ونفسيّة، وقد سردها الكاتب في قوله: "وقد وضع خبراء الجيش سياسة معينة فيها كثير من الأساليب النّفسيّة للتّعامل مع المعتقلين الّذين يُرَحّلون إلى معتقل الفارعة، منها: إعطاء كلّ سجين رقمًا، لا ينادى إلّا به، ويتمّ تجاهل اسمه بشكل مطلق، وربما الأهم، إجبار كلّ أسير أن يرد عندما ينادى عليه: نعم سيدي! وكان يتعيّن على كلّ فوج من المعتقلين أن يتلقّى وجبة من الضّرب قبل دخوله المعتقل، بالهراوات والبساطير المعدنيّة.

كُنّا أصغر من أن نواجه هذه السياسة، لكنّنا قرّرنا كسرها بقدر ما نستطيع، عبر خطوات معينة، مثل تجاهل النداء الّذي يوجّه إلى الأسير الرّقم، وتجاهل الردّ بنعم

[1] ن.م.، 21.

سيدي، ودفعنا ثمنًا غاليًا جدًّا، ما زالت آثاره تظهر على أجسادنا ... كلّ تجاهل للأوامر كان يتبعه عزل في غرفة انفراديّة، ووجبة ضرب عنيفة ... كان على السّجين أن يعاني من ظروف النّوم في الغرف، ومن الأكل، ومن افتقاد النّظام في حياة المعتقلين الداخليّة، ومن بطش الجنود الدائم، والعمل ساعات طويلة في إعداد النّواقص في المعتقل، وما أكثرها".[1]

ثالثًا- وسائل التّعذيب، وأثرها النّفسيّ على المعتقلين

يترك التّعذيب بصنوفه المتنوعة؛ الجسديّة، والنّفسيّة آثارًا سلبية كثيرة على المعتقلين، وتتفاوت تلك الآثار من معتقل إلى آخر، وفي حالة الكاتب أسامة العيسة الذي وضع روايته "المسكوبيّة: فصول من سيرة العذاب" بعد أكثر من ربع قرن على اعتقاله، ظهرت آثار التّعذيب واضحة؛ وذلك على الرّغم من أنّه أبدى معرفة، ووعيًا، ونضجًا أمنيًا، وسياسيًا، وثقافيًا قليلًا ما يتوافر عند كثير من المعتقلين، وهذا ناتج حسبما يظهر من انتمائه للحزب الشّيوعيّ الفلسطينيّ، الّذي كان يهتم أكثر من غيره بهذه القضايا، ويبتعد عن الكفاح المسلّح في حينه.

ومن أهم الآثار النّفسيّة الّتي يتركها التّعذيب على المعتقلين كما سردها الكاتب، الآثار الآتية:

1- أنّ الكاتب بقي يعيش هاجس السّجن، حتّى تزوّج وسُجن ابنه في المسكوبيّة الّتي تركت في نفسه وجسده ندوبًا لا شكّ في أنّها هي الّتي دفعته لكتابة هذه الرّواية، وإهدائها له.

2- إنّ حياة المعتقلين بكلّ ما فيها من نضال، وألم وعذاب نفسيّ وجسديّ للمعتقل، وأهله، وذويه، وأصدقائه، باتت الشّغل الشّاغل للكاتب، وهو يشعر بالتّقصير، والعجز في معالجة قضايا المعتقلين الفلسطينيّين، وضرب مثالًا معاناة صديقه عيسى عبد ربّه، قال: "وفي الوقت ذاته أشعر بالتّقصير، وبالعجز، وأسأل نفسي دائمًا كيف يمكن أن أكتب مثلًا عن صديقي عيسى عبد ربه الّذي دخل عامه التاسع والعشرين في السّجون؟ 29 ربيعًا وشتاءً وصيفًا وخريفًا، 29 عامًا لم يرَ فيها السّماء كاملة، وإنّما عبر الشبك، رآها مقسّمة،

[1] ن.م.، 23-24.

مكعبات، مثل قطع حلوى البقلاوة. ليجرّب أيّ شخص أن يرى السّماء من خلال شبك، وليخبرني كم يمكن أن يصمد، وأيّ كابوس سيصيبه؟

أظن أنّنا لم نكتب السّطر الأوّل في ملحمتنا ...! لم نكتب كيف يمكن أن تصبح رؤية السّماء كاملة، أمنية ...!".[1]

3- يتأثّر المعتقلون كثيرًا عندما يسمعون صراخ زملائهم، وأنينهم في أثناء تعذيبهم، في فترات التّحقيق، ويزداد تأثُّرهم بذلك إذا كان المعتقل مريضًا، ويستغل المحقّقون ورجال الشّرطة، والجنود ذلك المرض، ويزداد أكثر إذا كان الصّراخ والأنين يأتي من فتاة مناضلة، فيتسلّل إلى المعتقل على أنّه صوت استغاثة، وهو لا يستطيع تلبيته. وفي حالة الكاتب بقي صراخ الفتاة المقدسيّة يلاحقه مدّة طويلة بعد خروجه من السّجن، حتّى إنّه اعتبره أمانة في عنقه، قال: "وظلّ نواح الفتاة، الّذي يشبه الاستغاثة، يتردّد لديّ في فترات عمريّة لاحقة، وعندما كنت أذكر ذلك لأصدقاء مقرّبين من المثقّفين، معتبرًا حزنها المعتّق "أمانة في أعناقنا"، كنت أواجه بعدم الفهم، وأحيانًا بالسّخرية، وكان بعضهم يعتبرني ساذجًا"[2].

[1] وحيد تاجا، مرجع سابق.

[2] أسامة العيسة، مرجع سابق، 30.

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث، الّذي تناول موضوعًا واحدًا من موضوعات رواية المسكوبيّة، وهو " أنواع التّعذيب"، يُمكن القول بالنتائج الآتية:

1- رسم الكاتب للقارئ صورة واقعية لِما يلاقيه المعتقل الفلسطينيّ في سجون الاحتلال من صنوف العذاب الّتي يجتهد خبراؤه في ابتداعها بهدف الحصول على المعلومة المطلوبة، وقهر المعتقل، وإذلاله. وقد قدّم نفسه نموذجًا للمعتقل، والمسكوبيّة نموذجًا للمعتقلات والسّجون الصّهيونيّة، كما قدّم صورًا من تجارب معتقلين آخرين التقاهم في المعتقلات، أو قرأ عنهم، وصورًا للسّجون، والمعتقلات الّتي اعتقلوا فيها.

2- القارئ الفلسطينيّ للرّواية، الّذي جرّب الاعتقال في سجون الاحتلال ومعتقلاته يجد نفسه وكأنّما هو يستعيد ما حصل معه، أو مع زميل له التقاه في زنزانة، أو غرفة تجميع المعتقلين تمهيدًا لتوزيعهم على المعتقلات المختلفة "المعبار"، أو سيارة نقل المعتقلين من سجن إلى آخر "البوسطة"، أو في معتقل أو سجن مركزيّ، أو حتّى بعدما تمّ تحريره.

3- استطاع الكاتب أن يبثَّ الأمل في نفوس قرّائه، فقدّم لهم بطريقة واضحة، ولا تقبل التأويل كيفيّة مواجهة المُحقّقين، وضباط المخابرات، وجنود الاحتلال وشرطته، والأدوار الّتي يتبادلونها في مُمارسة صنوف التّعذيب المختلفة على المعتقل من أجل هزيمته، وقهره، والحصول على المعلومة الّتي يريدون، وذلك من خلال صموده، فهو صاحب حقّ وقضيّة عادلة، وهؤلاء كلّهم مغتصبون لذلك الحقّ، وموظّفون يعملون لخدمة قضيّة خاسرة. وبذلك أعطى صورة إيجابية للمعتقلات حيث تحوّلت إلى ما يشبه المعاهد الّتي يحصلون فيها على المعرفة السليمة، وتُعزّز فيهم حبّ الوطن، والدفاع عنه، وذلك إذا ما أحسن المعتقل استغلال مدّة اعتقاله.

4- تمكّن الكاتب - غالبًا - من ترسيخ صورة الصّهاينة الحقيقيّة في ذهن القارئ، فهم يمثّلون الشّر بأبشع تجلّياته، والذي لا يعير أهميّة لقيمة الإنسان، ويسود عنده مبدأ الغاية تُبرّر الوسيلة.

المراجع

البيومي، خالد. "أسامة العيسة: أكتبُ عن النّاس المهمّشين في فلسطين." **جريدة الحياة**، 2018/12/26.

تاجا، وحيد. **حوار مع الأديب أسامة العيسة، حول أدب السّجون: رؤى ومتابعات**. مؤسّسة فلسطين للثّقافة، 2012/5/13. الرّابط:
https://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?itemid=4348#.W1NcbdJKiUk

الحواري، رائد. "التّعذيب في رواية المسكوبيّة أسامة العيسة: محور الأدب والفن." **مجلّة الحوار المتمدّن**، العدد (5376)، يوم 2016/12/19. الرابط:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=541843

السّلحوت، جميل (إعداد وتحرير). **أدب السجون**. ط1. القدس: دار الجندي للتّوزيع والنشر، 2012. (ندوة اليوم السابع، سلسلة الإصدارات (6): المسرح الوطنيّ الفلسطينيّ، ندوات).

العصا، عزيز. "أسامة العيسة في روايته "المسكوبيّة": القضاء، الطّب، والكتب ... من مكوّنات الحرب النّفسيّة!!." **جريدة القدس**، القدس، الجمعة، 2015/1/23، ص18.

العيسة، أسامة. **المسكوبيّة: فصول من سيرة العذاب**. ط1. رام الله: منشورات مركز أوغاريت الثّقافيّ، 2010.

محسن، سميح. **المكسوبيّة: يوميات كاتب فلسطينيّ تضيف إلى أدب السجن**، الثلاثاء 22/ 4/ 2014.

https://alarab.co.uk/node/21799

"المرفق 1391: معتقل سري إسرائيليّ سيئ السّمعة." **جريدة الإمارات اليوم**، الخميس (15 رجب 1438الموافق 2017/4/13، ترجمة عوض خيري عن صحيفة "الغارديان" البريطانيّة. الرابط:

https://media.emaratalyoum.com/images/polopoly-inline-images/2017/04/28.jpg?_ga=2.245954820.1011518537.1531841128-1991298705.1531841128

مسلم، سامي. الدكتور مسلم يكتب عن المسكوبيّة، الرّاوية: مدونتي الأدبيّة، 2010/8/24. الرابط:/tp://alrawwya.blogspot.com

نوباني، يامن (نصّ)، وياسين، معن (تقرير). **في مكتبة أسامة العيسة**، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينيّة (وفا)، بيت لحم، 2016/11/27.

نوباني، يامن. **أسامة العيسة: الأدب صناعة ثقيلة**. ضيف وفا (14)، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينيّة (وفا)، بيت لحم، 2017/2/19.

يقين، تحسين. "مجانين بيت لحم لأسامة العيسة: رواية المهمّشين وسيرة الآخرين في الذّات." **جريدة الأيام**، رام الله، 2016/11/8.